أيه هى الزوجة الحقـــة ؟

بقـلم : عبد الحميد العمروسى

حقاً وربى أسترشدكم! فقدضللت الطريق بعد أن أعيانى التعب ، وتنكبت السبيل بعد أن أضنانى الوصب ، باحثاً منقباً عن تلك التى تستحق بجدارة حمل هذا اللقب ، اللقب السامى ، لقب : « الزوجة الحقة » حيناً لجأت إلى مكالمة ذوى الخبرة فما بفم ، فبعضهم أشار بالقروية الساذجة ، وآخرون أشاروا بالمدنيـة المتعلمة ، وحيناً استطلعت آراء الكتاب فى مقالاتهم ، والمتناظرين فى حوارهم وجدلهم ، فما ألفيت إلا خلافا فى الرأى أدى إلى التراشق بالأدلة الهدامة.

أرشدونى إلى تلك التى تستطيـع الاضطلاع بأعباء الزوجية على أتم وجه وأكمله: أهى القروية الجاهلة ، أم المدنية المتعلمة ؟ وإن لم تكن إحداهما ، فمن هى إذن ؟ ذلك ما سأحاول توضيحه وإن قلت : أرشدونى ، فلست أقصد بذلك شخصى فقط ، بل أقصد أفراد جنس الشباب الذين يرغبون فى العثور على شريكة لهم يزين مفرقها تاج الزوجية السامى.

أما القروية الجاهلة ، فلا أرتضيها زوجة لأمور ، منها :

تربية النشء : الحياة الزوجية لابد لها من مسرات تحقق السعادة ، وتجلب الرفاهية ؛ ومن مسراتها أن تشعر النفس وتحس أنها أنجبت بنين وبنات قدتمهدتهم يد العناية من الصغر فشبوا ونشئوا متوافرين على الخير ، مفطورين على الحرية وحب الوطن ، قادرين على حسن القيام بما أعدوا له ، لا كشباب اليوم الذين عكفوا على المفاسد ؛ فمن لى بقروية تتفهـم طبائع الأطفال ، وتدرك نفسياتهم وميـولهم وغرائزهم ، فتتعهـدها بالرعاية والعناية حتى تثمر ثمرها ، وتؤتى أكلها ؟ من لى بقروية تجعـل من البيت حجرة دراسة يكمل فيها الأطفال ما فاتهم فى المدرسة ، وأنى لها كل هذا وهى التى تربت فى واد غير هذا الواد ؟

الميـــول والرغبـات : إن الشريكين لا بد ، لدوام شركتهما : من توافق فى الطباع ، واتحاد فى الميول والرغبات ، وتقارب فى العقلية المدركة حتى يأنس كل بصاحبه ، ويركن إليه فى العقيدة عن ثقة واطمئنان ؛ وكيف لهذه أن تتحد وإياى على طريق واحد؟ وكيف لها إذا خلوت بها أن تشبـع رغبتى فى خوض نواح عدة من الأحاديث الممتعة ؟ بل كيف لها إذا جئت متعباً أن تتلمس مواضع التعب فى النفس فتسرى عنهـا بلسانها السلس وتخفف آلامهـا بمحياها الضاحك ؟ كيف لها إذا رأتنى مغضباً تجنبت استمرار مشاكستى ومعاندتى واستفزازى؟ كيف لها إذا أخطأت هى التقدير فى عمل أو قول أن تقبل النصيحة وتنصاع للارشاد ؟ كيف لها كل ذلك وهى التى لا يمتد أفق عقلها إلى ما وراء الدار ، ولا إلى موضع خطوتها الثابتة ،

وهى التى لا تفهم من السعادة إلا أنها أكل وشرب؟ فهذا البون الشاسع فى الادراك، واختلاف النظرة إلى الحياة، يخيل إلى أنه يجعل من المتعسر أن يستديم اتفاقنا، أو نطمئن إلى بعضنا، أو أن نخلد إلى الدعة والاستقرار، أو أن نهتصر بأيدينا غصون السعادة ...

حسن الذوق: من وظيفة المرأة الهيمنة على شؤون البيت، ولا ألزم لصاحبة هذه الهيمنة من الحساسية: أعنى أنها تدرك وتشعر بالغث والسمين، وتتأثر تسيتها فرحا بنظافة موضع، واشمئزازاً وغضبا بقذارته أو سوء ترتيبه. فهذه الحساسية تدفع المرأة إلى تجميل كل ما تحت يدها من: أولاد، وثياب، ورياش، وهى التى تحمل الرجل على الاطمئنان إلى كل ما تقدمه له، وهى التى تجعل من البيت روضة تستنشق فيها الأسرة أريج الهناء، وعبير الراحة والهدوء. هذا النوع من الذوق لا تكفى فيه الوراثة، بل لا بد له من الدرس والتعليم حتى يتربى ويصير عادة ثابتة؛ فالمرأة التى لم تتهذب عقليتها، ولم تتفهم ماهو سر الجمال، لا يرجى منها حسن نظام ولا جمال ترتيب وتنسيق؛ وكذا المرأة التى لا تدرس قوانين الصحة ولا تعرف الأمراض ومسبباتها، والجراثيم ومضارها، لا يمكن أن تعنى العناية التامة بأمر الصحة والنظافة، بل تكون إلى البلادة أقرب، لا تقشعر إن رأت صديداً فى عينى طفلها، ولا تشمئز من تركه شهراً وشهرين بدون استحمام، ولا ترى غضاضة من مضغ الطعام فى فيها ودسه فى فم طفلها، وهل المرأة الريفية توفرت لديها عادة حسن الذوق المنبعثة عن إدراك سر الجمال، وعن الدراية بخطر إهمال القوانين الصحية؟ كلا! فلا عجب إذا ألفيناها جامدة الذوق، خامدة الحساسية؛ ولقد شاهدت بعينى رجلا وأولاده وضيفاً — هو أنا — التفوا حول الخوان للغداء، والزوج تحضر لهم الطعام وهى فرحة جذلة، تخب فى سذاجتها، ولما انتهت وقفت مسندة ظهرها إلى الحائط وعلى قيد خطوات منهم علها تسمع إعجابا بالطعام أو شكراً له، حيث يسرها أن يطرق مسمعها مثل هذا الاطراء، ولم تكتف بهذه الوقفة، بل أرادت أن تتدخل فى الكلام، أو على الأقل تسمعهم صوتها، ففيم تتكلم؟ فى حديث تظنه مقبولا، فاذا هذا الحديث أن قالت موجهة الكلام لبعلها ما معناه: «بيت الأدب امتلأ والرائحة التى تهب منه أماتت الأوز والبط، فعجل ومر بنزحه وإخلائه» فلم تشعر إلا وطبق «الملوخية» يرن فى صدرها؛ على أنها إذا أرادت أن تتجمل جاء تجملها ناقصاً، فهى تلبس سروالا نظيفاً، فى حين لا تستحم ولا تستبدل بالقميص غيره، وإذا همت بنظافة آنيتها ورياشها فلا تقوم بذلك شعوراً بالنظافة والحسن، بل حتى لا توصم بالاهمال، وحتى لا يغضب عليها الزوج فيهينها ...

فالقروية الجاهلة ليس فى مكنتها الاضطلاع بتربية النشء، التربية المرجوة، ثم لا تتقارب عقليتها من عقليتنا، ولا تتفق ميولها وميولنا، ولا تحوز الحساسية الذوقية التى تدفعها إلى كل ما هو جميل، ومن ثم نستطيع الحكم بأنها لا تستحق حمل هذا اللقب السامى، لقب: «الزوجة الحقة».

قد يقول أنصارها وأعوانها : إنها طاهرة القلب ، تقية السريرة ، محصنة ، عفيفة ؛ نعم : وإنى لأقرهم على ذلك وأوافقهم ، ولكن: هل هذه الصفات وحدها هى الصفات التى يجب أن تتوفر فى المرأة كربة بيت ؟ أظنهم يقررون معى أن هذه الصفات ما هى إلا ركن من أركان لا بد من توافرها جميعاً حتى تكون الحياة الزوجية : محبوبة ، سعيدة ، دائمة . على أنى أرى سذاجة الريفية كثيراً ما تكون خطراً قل أن تنجو الحياة الزوجية من العثار فيه ، فهى كستار رقيق لا يلبث أن يتمزق ويبدو ما بداخله من الحمق والهوجاء ، وما أشد صلابة رأسها حالة غضبها، فلا يجديها منطق أو تحايل أو إرهاب؛ فان دنوت منها ملوحا بيدك صممت على العناد وتمادت فى اللدد، وإن ابتعدت واستخدمت القول أطلقت لسانها من عقاله دون تدبر فى العواقب ، وأسمعتك من ثرثرتها مايذهب بحلمك ويطيش له عقلك، وهى فى ذلك معذورة ، فالناحية العقلية منها راكدة ، وقوة الصبر مختفية وسلامة الطوية غلابة.

وإذا كانت هذه هى الريفية وهذا هو أمرها ، فهل ياترى سنجد بغيتنا فى المدنية المتعلمة أم ستوضع على الرف كما وضعت سابقتها ؟ سنرى ...

أجد الكثيرين ينصحون بالابتعاد عن المدنية المتعلمة وعدم الوقوع فى حبائلها ، وإن سألتنى وسألتهم عن علة ذلك أجبناك :

تربية النشء : لاأنكر، ولايستطيع أحد أن ينكر، أنها تعرف من تربية النشء قدراً تمتاز به عن أختها الريفية، فالبيئة والمدرسة بلا مراء أثرتا فيها وأوقفتاها على حسن تعهد الصغار لو قامت هى بهذا التعهد؛ لكنا للأسف نرى الكثيرات منهن يعتنين بما يجلب المسرة لأنفسهن ولا يأبهن لأمر أولادهن، فيتركن شأن هذه الجسوم النورانية والأرواح الملائكية للخدم، وما أشد هؤلاء خطراً على الناشئة من كل الوجوه ، وما أقساهم على الصغار فى غيبة الأمهات ، وكثيراً ما يكونون وساطة تعارف بين الفتاة ومن تحب ، بل بين السيدة ومن تهوى .

تدبير المنزل : من الدعائم التى يبنى عليها صرح الحياة الزوجية ، ومجد الأسرة ، حسن قيام المرأة بأمور بيتها بنفسها ، ونقص هذا هو الداء العضال الذى لايزال جرحه دامياً فى بيوتنا ، وأرانى مضطراً إلى القول بأن المتعلمة قلما تحسنه ، وأنى لها ذلك ، وهى التى صرفت الشطر الأكبر من تعليمها فى غير هذا الجانب ؟ فبدل أن تتوافر على تعلم الطبخ والغسل والكى والكنس والحياكة، نراها أفنت شبابها فى مسائل على المواسير، وفى تمارين على الزوايا المنفرجة والقائمة ، وفى رسم شارع فيه شريطان يتلاقيان عن بعد ، وكأنى أتوقع غضبهن ، أما أنا فلا زلت أقرر أن بعضهن لايجدن طهى طبق أرز لضيف، أو حياكة قميص لصبى ، وإنما يجدن حقاً التجمل والتزاور ، والولع بالأزياء، واللف فى المتاجر. على أنه ينبغى ألا يفهمن أن هذا يمنع من أنه يوجد بينهن قليلات يستطعن اتقان القيام بالبيت ولوازمه ؛ لكنهن

يا للأسف يترفعن عن مباشرة ذلك بهذه الأيدى المدهونة الأظافر فيتركن الأمر فيه إلى غيرهن .

الميول والرغبات : وإن كانت الريفيـة فى الحضيض من الادراك فبعضهم يختارها عن عالية الادراك مفضلا أخف الضررين ؛ وهنا تعرض لى فكرة وهى : إذا كنا نميل ونرغب فى الزوجة التى تهذب عقلها ، ونمت مداركها ، وأحاطت بعض الاحاطة بالعالم وما فيه، فتستطيع مجاراتنـا فى شتى النواحى الكلامية ، ونستطيع التفاهم معها على أساس العقل والمنطق حتى تحسن علاقتنا، ويسودنا جو من الدعة والاستقرار. أقول: إذا كنا كذلك فلماذا يختار بعضنا الجاهلة دونها ؟ يقولون نفس المرأة بطبيعتها تغلب عليها الناحية الوجدانية: وإذا كانت متعلمتنا فى حيازة رجل ودفعها الوجدان وخيل إليها أنها فى مرتبة ، إن لم تكن فى مستواه، فهى أعلى منه فلا تقر له بالرياسة، ولا ترى نفسها مجبرة على الخضوع لرأى مالم يوافق مزاجها؛ وهنا كل الخطر إن كان ذا شمم وإباء، وهذا النقص فى إدراك مركزها مرجعه إلى أنها لم تدرب فى حياتها المدرسية على معاملة الأزواج ، وكيف تتفهم طبائعهم ، وتتشرب أغراضهم وميولهم . . .

قد يقول أنصارها وأعوانها: إن فيها رقة وظرفاً، نعم: إنها لكذلك، ولكن متى؟ فى الوقت الذى تكون أنت فى حل منها ، ولم ترتبط وإياها برباط مقدس. فهى لا تزال تعطيك من ظرفها وعذب ألفاظها مادامت الصلة صلة [illegible] ، وصداقة يرجى منها خير، فاذا ما انتقلت من حياة التعارف إلى حياة أخرى تتصل حلقاتها وتتوثق عراها توثقاً شرعياً ، فسرعان ماترى نظرك قد خدعك ، وسمعك كذبك ، والسهام توجهت إلى فؤادك .

وإذا كان الأمركما قد علمتم، وسمعتم ، أن الريفية يختارها فريق على جهلها خوفاً من متاعب المتعلمة ، وأن المتعلمة يرغب فيها بعضهم حباً فى ظرفها مع التغاضى عما سواه ، أفلا ترون معى أن بيئتنا المصرية تنقصها طبقة من الآنسات ينلن رضا الجميع ويحزن كل الثقة ؟ أين هى هذه الطبقة التى تجمع إلى التعليم والالمام بشؤون تربية الصغار ، والخبرة بأمور المنزل ، والميل الحق إلى تعهد البيت بنفسها ، والشعور بأن الرجل هو هو صاحب الرياسة فى الأسرة وعلى كل أفرادها الخضوع له بالطاعة والاحترام .

لا ننسى أن فى البيئتين : الريفية والمدنية ، فتيات لا غبار عليهن ، ولكن : هل هن بالكثرة إلى درجة الراغبين ؟ إنا نطالب المسئولين العمل على توفير هذه الطبقة المفقودة، فكل توان عن توفيرها عمل على تفاقم كساد الزواج ، وجناية ضد أولانا القادمين ؟

عبد الحميد العمروسى